

قبيلة " الهادزا " التنزانية آخر قبائل الصيد المهددة بالانقراض

قبيلة عمرها ١٠ آلاف عام
وتعيش حياة الإنسان الأول
حتى اليوم



انها قبيلة " هادزا" او " هادزابي" أحد أهم الشعوب في تنزانيا، بشرق إفريقيا، فمنذ ما يقرب من ١٠ آلاف سنة مضت في مناطق السافانا والأراضي العشبية، كان الصيد هو السائد في المجتمعات البدائية، التي كانت تعتمد على صيد الحيوانات البرية وجمع الثمار من الغابات، وحتى اليوم يُعد هذا الأسلوب هو السائد لشعب "هادزا"، التي ما زالت تعيش على هذا الحال حتى الآن ومهددة بالانقراض، باعتبارها آخر قبيلة تعيش على القنص والصيد.

استمراراً للسلسلة التي بدأتها المجلة في التعريف بقبائل أفريقيا، نتوقف في هذا العدد مع إحدى أندر القبائل الإفريقية التي تعيش على حافة الانقراض... قبيلة لم تعرف لليوم أى طابع للحدثة، وتعيش حياة البدائية بكافة معانيها من حيث المسكن والملبس وحتى القنص بالسهم والرمح.

فتخيل معنا أنك تشاهد فيلماً لقبيلة لا تستخدم حتى اليوم الكهرباء، ولا تتعامل بالحواسيب، ولا تعرف الطائرات ولا السيارات ولا تستخدم حتى الدراجات.

الدراسات أن شعب هادزا ربما عاش في منطقة Yadea Cinih لآلاف السنين، مثلهم في ذلك من الناحية الوراثية - مثل البوشمن في جنوب إفريقيا.

كما يشير علماء الآثار، الذين استخدموا أدلة من أذرع الأدوات الحجرية، والملاجئ الصخرية، وفن الصخور، إلى أنه قبل ٣٠٠٠ عام مضت، كان للناس الذين يعيشون في أنحاء تنزانيا نمط معيشي وبنية اجتماعية مشابهة تمامًا لنمط هادزا، ومنذ ما يقرب من ٢٥٠٠ عام، انتقل المتحدثون الكوشيين إلى شمال تنزانيا، و منذ ١٥٠٠ عام ، بدأ متحدثو البانتو من غرب إفريقيا في احتلال تنزانيا، وقبل حوالي ٣٠٠ عام انتقل

قبيلة "هادزا"، أو "هادزابي" هي قبيلة عرقية إفريقية، تعيش حول بحيرة "إياسي"، في الوادي المتصدع الكبير، بمنطقة "نغورونغورو" في شمال تنزانيا، وفي هضبة سيرينجيتي، على مساحة ٤٠٠ كيلومتر مربع حول بحيرة إياسي، عند خط العرض ٣٠-٤٠ درجة جنوبا وخط الطول ٣٤-٣٦ درجة شرقا.

ويتراوح عدد أفرادها طبقاً لأخر الإحصاءات الصادرة عام ٢٠١٥ ما بين ١٢٠٠-١٣٠٠ نسمة فقط، لا زالوا يعيشون بطريقة بدائية كصيادين وجامعي ثمار، تماماً كما فعل أجدادهم طوال عشرات الآلاف من السنين، على الرغم أنهم فقدوا حوالي ٩٠٪ من أراضيهم خلال الخمسين عاماً الماضية. وحسناً فعلت الحكومة التنزانية وللمرة الأولى،

عندما اعترفت مؤخراً، وبشكل رسمي بحقوق ملكية قبيلة هادزا لأراضيهم، وتم تسليم ملكية الأراضي في حفل خاص أقيم في مجتمع هادزا في دومونجو، حيث صرح "دوروث وانزالا" مساعد المفوض المعني بالأراضي في المنطقة الشمالية بأن القرار بمنح الهادزا صكوك ملكية رسمية يأتي كضمانة لعدم اضطهاد آخر قبائل الصيادين، بينما قال نفتالي كيتاندو، أحد ممثلي القبيلة "إن دخول القبائل الأخرى التي تجلب قطعان من الماشية وإدخال الزراعة في الوادي كان يهدد بقاء أهل هادزا الذين يعتمدون فقط على الفواكه والجذور والعسل والحيوانات الصغيرة من أجل البقاء.

وحسب خبراء علم الأجناس لا يرتبط شعب "هادزا"، جينيا مع أي شعب آخر ويعيشون قرب موقع يضم بعض أقدم بقايا البشر التي عُثر عليها تاريخياً، حيث تم اكتشاف بقايا أول جنس بشري "هومو هابيليس" الذي عاش قبل ٩.١ مليون عام، وتقول



يعيش افراد القبيلة فى خيام بدائية وفي الكهوف المحيطة ببحيرة إياسي ويمارسون مهنة الصيد بنفس الأدوات الي استخدمها الأجداد الأوائل من السهام والرماح لصيد الغزلان والجاموس البري، وقردة البابون أوقردة الرياح، من مناطق الغابات والأحراش الوعرة، وتمثل رحلات صيدهم رحلات حياة أو موت، ذلك أن المنطقة مليئة بالشجيرات الشائكة، والثعابين السامة، والأسود التي لا تكف عن مهاجمة الرجال، ولكنها مخاطر يخوضها أفراد الهادزا لأنها الفاصل الوحيد بين الشبع والجوع.



منذ القرن الثامن عشر، بدأ أبناء القبيلة فى الاتصال مع المزارعين والرعاة الذين يدخلون هادزالاند والمناطق المجاورة لها، وكانت التفاعلات فى كثير من الأحيان عدائية وتسببت فى انخفاض عدد السكان فى أواخر القرن التاسع عشر، وحتى عام ١٩٥٠ كانوا يعيشون فى معسكرات صغيرة متنقلة، ولم يكن لديهم "رؤساء" أو منظمة سياسية رسمية، ومنذ ذلك الحين، أصبحت الحياة صعبة على نحو متزايد حيث توغلت القبائل الرعوية الأكبر على جزء كبير من أراضيها، مما أدى إلى تدمير الكثير من الحياة البرية والنباتات التي يعتمد عليها الهضبة فى كسب عيشهم.

منذ ستينيات القرن العشرين، بذلت العديد من المحاولات وتهيئة الاجواء من أجل دعم استقرار القبيلة والمحافظة عليها كإرث حضارى وثقافى مميز للتاريخ الإنسانى.

ويُعد أول اتصال أوروبى لأبناء هذه القبيلة مع بداية الإحتلال البريطانى لـ"تنزانيا"، أواخر القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك الحين، كانت

الناطقون باللغة النيلوسية من السودان إلى شمال تنزانيا وأراضي هادزا، واليوم هناك العديد من المجموعات المتميزة عرقياً التي تعيش فى المناطق المتاخمة لأراضي قبيلة هادزا، ومنهم عرقيات (agotaD) - iasaM-wqarl - - uznasl - (amukuS).

اللغة

يتحدث أبناء القبيلة ياحدى اللغات المعزولة والتي لا تربطها أي علاقة مع أي لغة

أخرى، وهي لغة "هدان" وهي واحدة من أقدم اللغات القبلية الصوتية التي لا تُكتب، وتعتمد على تباين الإيقاع الصوتي، والنقرات أكثر من الكلمات، وإعادة استكشافها سيكون إنجاز هائل لأي متخصص فى علم اللغة، كما يتحدث أبناء القبيلة اللغة السواحيلية وهي اللغة التي يتحدث بها الشعب التنزاني.

أسلوب حياة بدائي:

معظم أبناء "هادزا"، يتغذون على ثمار شجرة "باوباب"، وهي أشجار تنتج ثمار غنية بالمواد المغذية والأوراق الخضراء التي يتم تناولها فى أوقات الجوع، ويستخدمون أجزاء الأشجار كدواء وعادة يتم سحقها لصنع اللبن المخفوق بالحمضيات، وبعض الثمار الأخرى مثل: اللفت والكرفس.

كما يعتمدون على اللحوم من الحيوانات البرية خاصة القردة والأسماك، ويدخن أفراد الـ"هادزا" التبغ، ولا يتعلمون بسبب العزلة التي يعيشونها، وتتميز مناطق معيشتهم بالمناخ الساخن والجاف والرياح خلال موسم الجفاف (من يونيو إلى أكتوبر) ولكنها خضراء ومورقة خلال فترات الأمطار.

هناك محاولات عديدة من قبل الإدارات الإستعمارية المتعاقبة، والحكومة التنزانية المستقلة، لتوطين الـ"هادزا" وتغيير نمط حياتهم القائم على الصيد، وإجبارهم على تبني أساليب الاستقرار والزراعة، إلا أن هذه الجهود فشلت إلى حد كبير، ولا تزال النسبة الأكبر من أبناء القبيلة يتبعون نفس طريقة الحياة التي اتبعها أجدادهم الأوائل.

وفى تقرير مصور نشرته

صحيفة «ديلي ميل» البريطانية وصفت مجتمع القبيلة التنزانية بأنه مجتمع "الحرية المطلقة"، التي لا ينعم بها عالم ما بعد الحداثة، فليس بينهم من يستخدم الهاتف المحمول، أو يتواصل عبر الرسائل النصية، ولا يوجد لديهم كهرباء للإنارة، ولا يوجد وظائف ولا مدرء، ولا جداول مواعيد، ولا أي شكل من أشكال الهياكل الاجتماعية أو الدينية، ولا يوجد قوانين، أو ضرائب، وفوق كل هذا لا يوجد مال.

وينعم أفراد القبيلة بغياب أي شكل من أشكال الصراع، وطبقاً لما جاء على لسان بعض أفراد القبيلة: "نقضي ساعات النهار في صيد قردة البابون، في ظل الظروف المناخية الصعبة ودرجات حرارة المرتفعة".

يصف علماء الأنثروبولوجيا كيف يتم ربط استراتيجيات الكفاف الخاصة بمجتمع الهادزا ارتباطاً وثيقاً ببيئة السافانا في الغابات، وارتباطهم بأخلاقيات ثقافية مميزة حيث يسود بين أبناء القبيلة الاهتمام الأدنى بالسياسة، والمساواة، والحميمية بالنسبة للعلاقات الاجتماعية حيث يتصرف معظم الأفراد تجاه الآخرين مثل الأقارب، ويُعد التنقل جزءاً أساسياً من ثقافة القبيلة، كطريقة للعثور على الطعام وكأسلوب



لتنظيم التفاعلات الاجتماعية بشكل سلمي.

وعادة ما يعيش أبناء القبيلة في مخيمات تضم ٢٠ - ٤٠ شخصاً، في خمس مناطق عامة داخل بلدهم (مانجولا وهان أبي وتليكا وسيبونجا ودوندويا)، ولا توجد تقسيمات إقليمية مملوكة للأراضي بين مجموعات هادزا.

القرابة والأسرة

الأسرة جزء مهم للغاية من حياة القبيلة، يمارسون النسب الثنائي من خلال الأم والأب، ولا يتعرفون على العشائر، شروط القرابة واسعة وتضم كل الأقارب.

يقيم الأطفال في المقام الأول مع والديهم وإخوتهم، ومن المألوف أن يعيشون في كثير من الأحوال مع الأجداد أو العمات والأعمام، يتم تربية الأطفال في نفس الكوخ حتى يصلوا إلى سن البلوغ، وعند هذه النقطة يمكنهم النوم في كوخ مع زملائهم في نفس السن.

عادة ما يتم بناء هذه الأكوخ بالقرب من الوالدين أو الأجداد، وقد تستمر كل من البنات والأبناء في العيش في نفس المخيم الذي يقيم فيه أبائهم وإقامتهم، وتشير بيانات إلى أن نسبة كبيرة من أبناء القبيلة في أي معسكر معين ليست مرتبطة وراثياً ببعضها البعض.

الدين

يملك شعب الهادزا القليل جداً من الثروة المتراكمة ولا يشارك معظمهم في اقتصاد السوق، ومع ذلك يعيش نسبة قليلة منهم بالقرب من القرى ويشاركون في السياحة البيئية التي تتزايد باستمرار حيث يعملون كأدلاء صيد لشركات السفاري أو كحراس لتخويف الحيوانات البرية من مزارع القبائل المجاورة .

التعليم

استناداً إلى بيانات المقابلات (التي جمعها عالم الأنثروبولوجيا فرانك مارلو)، التحق حوالي ٢٠٪ من أبناء قبيلة هادزا دون سن ٥٠ عاماً بالمدارس الأولية لفترة زمنية قصيرة على الأقل - عادة ما تكون سنة أو أقل.

بالنسبة للمرحلة السنوية تحت سن ٣٠ سنة، فإن هذه النسبة تفضل إلى ٦٠٪، وتوجد مدرستان في المناطق المتاخمة لأراضي القبيلة، إلا أن أي منهما لا تقدم مناهج تتوافق مع ثقافتهم .

بينما تقدم مدرسة ابتدائية في منطقة إنداماغا، والتي بناها المبشرون في الهضبة، خدماتها التعليمية لأبناء القبيلة، وتمثل نسبة ثلث الطلاب فقط من أبناء القبيلة، بينما لا يكمل باقي النسبة من الأطفال مراحل التعليم ويفضلون الهروب إلى الأدغال، ويرى أبناء القبيلة أن تعلم القراءة والكتابة باللغة الإنجليزية والسواحيلية يحمل قيمة ضئيلة أو معدومة لأطفالهم.

يعيش Hazda في بيئة موسمية، فخلال موسم الجفاف، يعيشون في الخارج وخلال موسم

توصف قبيلة الهادزا بأنها مجموعة سكانية قليلة العدد، يغلب عليها عدم الانتماء لدين معين، ومع ذلك، يتفق علماء الأنثروبولوجيا على أن لديهم علم الكونيات - بغض النظر عن كيفية تعريفنا للدين، علم الكونيات لديهم يشمل الشمس والقمر والنجوم وأسلافهم. لديهم قصة إبداعية تصف كيف جاء الهزاع لسكان الأرض. إنها تنطوي على النزول إلى الأرض، إما من شجرة البواب أو أسفل عنق الزرافة.

لا يوجد في الهضبة أي شيء يعادل القادة الدينيين، وهم لا يمارسون السحر، لكنهم يعتقدون أن القبائل الأخرى لديها سحر ويمكنها أن تلعن الهادزا، لذا يضعون بعض المحظورات والطقوس والرقصات لطرد السحر خارج القبيلة.

التنظيم السياسي والاجتماعي

مثلها مثل كل مجموعات الصيادين الأخرى تقريباً، يتمتع أبناء قبيلة الهادزا ببنية اجتماعية متساوية، فهم لا يعترفون عادة بحقوق الأرض بالمعنى التقليدي، على الرغم من أنهم يعترفون بالتقارب مع مجموعات الهادزا الأخرى التي تشغل المنطقة.

ولا يوجد هيكل سياسي، رسمي أو غير رسمي، على المستوى القبلي يتم تنظيم المجتمع عادة في المخيمات، ويتم تقاسم العمل والغذاء بين أعضاء المخيم الأقارب وغير الأقارب، وتتمتع نساء القبيلة بقدر كبير من الاستقلالية والمشاركة على قدم المساواة في صنع القرار مع الرجال .





الأمطار، بينون أكواخاً مصنوعة من أغصان الأشجار والعشب المجفف، وعادة يبدأ أبناء القبيلة يومهم مبكراً، في حوالي الساعة ٦:٣٠ أو ٧ صباحاً ، حيث يستيقظ الأشخاص ويتحدثون حول نيران الصباح، وبحلول الساعة ٨:٣٠ أو ٨:٠٠ صباحاً، يغادر معظم البالغين المخيم بحثاً عن الطعام، وتتغذى النساء في مجموعات بينما الرجال عادة يتغذون بمفردهم أو في أزواج.

خلال منتصف النهار ونظراً لارتفاع درجات الحرارة، يستريح معظم Hazda أو يأخذ غفوة على مهل، سواء في المخيم أو خارج المنزل، وقد يتوقفون عن العمل للراحة لمدة ساعتين تقريباً بعد الغداء وحتى تهدأ الحرارة في منتصف النهار.

وعادة يعود معظم أعضاء المخيم إلى المخيم في حوالي الساعة ٥ أو ٦ مساءً ، عندما تبدأ الاستعدادات المسائية، نساء وأطفال يجمعون الماء والحطب بالقرب من المخيم، وعادة ما يتم إعداد وجبة المساء واستهلاكها قبل حلول الظلام مباشرة، وفي الليل عادة ما تتم طقوس السمر والرقص، وفي العادة يظل الرجال والنساء عادة مستيقظين حتى الساعة ١٠:٠٠ مساءً للحديث، وفي الليالي القمرية يؤدي أبناء القبيلة رقصات طقسية، تتضمن رقصة emepe حيث يقوم لرجال علي التناوب على ارتداء الملابس والرقص تجسيداً لأسلافهم من أجل نساء وأطفال المخيم، وقد تشمل الرقصات المسائية الأخرى رقصات لكلا الجنسين حيث يرقصون معاً كمجموعة كبيرة بينما يرددون ويغنون الأغاني .

وفي الأخير، تمثل قبيلة الهادزا جزءاً من الثقافة الإنسانية، التي اندثرت مع تطور حضارات العالم، لتبقى رمزاً يجسد البدائية الهادئة التي فقدها العالم، وتعد قبيلة الهادزا مثالا هاما لحاضرنا، وأمل في استمرار التعامل مع ماضيها.

إعداد: محمد أنور